

محمود الذوادي

الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية

(بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٦). ٢٧٦ ص.

عبد الغني عماد^(*)

أستاذ في الجامعة اللبنانية.

الثقافة هماً معرفياً طاعياً، وجعلت من حقلها مساحة حية للبحث والتحليل، وهي محاولة تستحق أن نتوقف عندها قراءة ونقداً.

يتألف الكتاب من سبعة فصول، من الواضح إنها كتبت على مراحل متباعدة، لذلك بدا فيها الكثير من التكرار «النصّي» وليس فقط التكرار الفكري، وهذا ما يعترف به المؤلف ويعتذر عنه في مقدمته. وبغض النظر عن هذه الملاحظة العابرة.

يتناول الفصل الأول تحليلاً يؤكد أن الإنسان بطبيعته كائن ثقافي قبل أن يكون اجتماعياً، مستنداً الى خمس ميزات ينفرد بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى وهي: النمو الجسمي البيئي، طول العمر، السيادة في العالم/الكون، الرموز الثقافية، والهوية المزدوجة (جسد ورموز ثقافية)؛ ويخلص الى أن منظومة

شغلت الثقافة العقول وما تزال، واستقطبت الأقلام والمفكرين، ونشأت حول إشكالياتها عمارة معرفية دشنها منظرون وفلاسفة ومفكرون أبدعوا نظريات وأسسوا مدارس ووضعو مناهج للنظر والتحليل. ناقض بعضهم الآخر، وما يزالون يضيفون ويراكمون إغناءً وتعميقاً، أو نقداً وتفكيكاً. مع ذلك، بقينا نحن العرب في موقع المتلقي، نكاد لا نقرأ أو نتابع ذلك الانتاج الضخم والمتناهي في عالم التنظير السوسيوثقافي والمعري. ما كتب في الغرب في هذا المجال غزير وغني، إلا أن المكتبة العربية تشكو من الفقر والندرة، عدا القليل من التراجم والمؤلفات التي اكتفت في الغالب بالعرض والتكرار، دون النقد والتحليل، وغلبت عليها النزعة المدرسية ودوافع الحاجة الأكاديمية الملحة.

ينتمي هذا الكتاب الى المحاولات العربية الجديدة التي جعلت من

الثقافية، وكشف التجليات واللمسات الميتافيزيقية المصاحبة لها. ويبدو المؤلف مأخوذاً بما وجدته في هذا المجال الإسلامي المعرفي، فيجهد لتقديم إطار نظري مناسب يدعم ويقوي منظور الرموز الثقافية عندنا.

في الفصل الرابع تأكيداً لضرورة تجاوز الرؤية التقليدية لعلمي الاجتماع والأنثروبولوجيا، خصوصاً بالنسبة إلى طبيعة الرموز الثقافية، بسبب سكوتها ولامبالاتها تجاه البعد الميتافيزيقي في الرموز الثقافية. وهو هنا يناقش معنى مقولة: لماذا يكون الغزو الثقافي أخطر أنواع الغزو؟ وهي مناقشة مهمة في بعدها الرموزي الثقافي المعاصر.

في الفصل الخامس من الكتاب، نجد معالجة لموضوع يندرج تحت سؤال: لماذا يتمتع أفراد الجنس البشري عموماً بأمد حياة أطول من غيرهم من أفراد كائنات الأجناس الحية الأخرى؟ وعلى عكس ما يظن المؤلف، الإجابة عن هذا السؤال ليست نادرة، ثمة إجابات كثيرة، إلا أن ما حاول المؤلف قوله في هذا الفصل، من خلال ربط منظومة الرموز الثقافية - التي هي أهم ما يميز البشر من غيرهم من الكائنات، ويمنحهم بالتالي السيادة عليها والخلافة في إعمار الأرض - بمسألة الزمن العمري للإنسان مقارنة بغيره من الكائنات. إن العامل الأول يقدم تفسيراً كافياً وحده، وهو أمر غير مقنع، رغم أهمية وجراءة المحاولة التي أقدم عليها المؤلف.

في الفصل السادس قراءة تأسيسية، تعيد تكرار العديد من الأفكار السابقة،

الرموز الثقافية التي يملكها ويستعملها الإنسان هي التي أهلته وحده للتميز والانفراد بتلك الميزات.

في الفصل الثاني يتابع المؤلف محاولته لتأصل ما يسميه أبجدية الرموز الثقافية، أي التعرف على أهم العناصر المكونة لمنظومة الرموز الثقافية عند الجنس البشري، وهي اللغة والفكر والمعرفة/العلم والدين والقانون والأسطورة والقيم والأعراف الثقافية؛ ليبين من خلالها التأثير المباشر وغير المباشر في تشكيل سلوكيات الإنسان كفرد أو جماعة.

يحاول المؤلف في الفصل الثالث أن يُكسب تحليله بعداً إسلامياً، كما أصبح رائجاً عند الكثير من الكتاب العرب اليوم، فيقحم القرآن في مناظرة مع علماء الاجتماع. وبغض النظر عن موضوعية المقارنة بين المنظور القرآني الذي هو إلهي المصدر، والمنظور السوسيولوجي الذي هو إنتاج بشري مفتوح على كل المؤثرات، فإن المؤلف يغامر ويفعلها، متسلحاً بتأويل بعض النصوص والآيات، للبناء عليها والقول إن الثقافة وقع «تشيؤها» في العلوم الاجتماعية المعاصرة، علماً أن هذه الخلاصة التي توصل إليها هي من كشوفات العلوم الاجتماعية المبكرة، وخاصة تلك التي ذهبت إلى تحليل إشكاليات المجتمع الصناعي والحدثة وما بعدها. القارئ لهذا الفصل ولغيره، وخاصة الفصل السادس، سوف يجد أن عذر الباحث في هذه المغامرة هو سعيه وإصراره على فهم معمق لطبيعة الرموز

الميتافيزيقي، الذي غاب عن اهتمام العلوم الاجتماعية المعاصرة، الأمر الذي جعل فهمنا وتفسيرنا لكثير من الظواهر والسلوكيات البشرية غامضاً؛ والثاني يتركز على محاولته «أسلمة» المنظور التحليلي الذي يقدمه لدينامية عالم الرموز الثقافية. نجح المؤلف، إلى حد ما، في المهمة الأولى؛ فقد أبرز أهمية منظومة الرموز الثقافية في حياة البشر، وشحن هذه المنظومة بمجموعة من الاستدلالات والتحليلات المفيدة، إلا أن مهمته الثانية أسفرت عن إفقار المنظور التحليلي، بسبب إغلاق مرجعيته على منظومة ثقافية واحدة، في الوقت الذي لا يكفّ فيه البشر، في كافة الثقافات، عن إنتاج رموز ثقافية مادية وغير مادية، ذات لمسات ميتافيزيقية أو متعالية، تنتمي إلى عالم الماورائيات والروحانيات، بالمعنى الفلسفي والديني لهاتين المفردتين □

وتقوم بهندسة فكرية منهجية لدراسة عالم الرموز الثقافية، تبين كيف يمكن أن تتحسن صدقية التحليل المعرفي للعلوم الاجتماعية، إذا ما هوتبنى منظومة الرموز الثقافية كإطار فكري رئيسي لتحليل وفهم وتفسير السلوك البشري الفردي والجماعي على حد سواء.

يعود المؤلف في الفصل السابع فيطرح مسألة تأصيل الفكر السوسولوجي العربي على أساس مرجعية الثقافة الإسلامية العربية، ويطرح عدداً من التبريرات التي يراها تؤهل الرؤية المعرفية للثقافة الإسلامية العربية لدراسة الرموز الثقافية، بما يجعلها قادرة على منافسة غيرها من الرؤى المطروحة في عالم اليوم.

يشعر قارئ هذا الكتاب بأن المؤلف مهجوس بهمّين، الأول يتمحور حول مسألة الرموز الثقافية ببعدها الروحي